

القصص

قصة مصرية

الأعمى . . .

بقلم محمود البدوي

فكيف تقنات باق العام ؟ وكيف تعيش ؟ هذا هو السؤال ! على أن الذين أمحدروا من الريف ، يعرفون تمام المعرفة أن هناك الملايين من أمثالها بضمون دائماً أيديهم على بطونهم ليحفظوا بذلك التوازن الاجتماعي لتخمة الأغنياء . مثل هذه الأيم السواد الأعظم من الفلاحين الذين لا يعرفون وخبر لهم إلا يعرفوا ، أنهم أتس مخلوقات البشرية في الدنيا جماء . إنهم مخلوقات ذليلة ناعمة ، لصقوا بالأرض حتى أكلتهم الأرض ، وأفتوا عصارة حياتهم فيها حتى استنفدت قوتهم واستفرغت جهدهم . ولو رأيتهم وهم عائدون من الحقول مع مغرب الشمس ، والصفرة الباهتة تملو وجوههم ، والقيار القدر عملاً أعينهم ويسد أنوفهم ، لملت أنهم أتس الناس في الناس ، وأشق الطبقات العاملة على الاطلاق . إنهم مخلوقات مريضة فقدت بهجة الحياة ونيمها واستسلمت صاغرة للمرض والفتاء

ويسكن مع هذه الأيم أعمى في الثلاثين من عمره ، وهو شاب أسمر فارغ ضليع الجسم مقتول العضل وثيق التركيب ، وهو المؤذن لمسجد القرية منذ أن شب عن الطوق وانخرط في عداد الرجال . على أن الذي جمع بين هذه الأيم المعجوز وهذا الأعمى الشاب ، لم يكن قرابة ولا نسباً ، وإن كان القرويون يسمون المعجوز « أم سيد » وسيد هو الأعمى ؛ وكانت المرأة تتمتع وتحتاج لهذه التسمية في أول الأمر ، وهي التي لا « سيد » لها ، ثم ما لبثت أن استراحت لها على مرور الزمن فقرها هايجها وسكن ، حتى تعمدت ألا تدفع هذا القول بما يكذبه ، وهي المتيقنة بأن الجدل في أمثال هذه الأمور غير مجد في الواقع . فن الذي يقف في وجه التيار الجارف ؟ ومن الذي يمكنه أن يمنع ألسنة الناس الطويلة جداً إلى حلوقها ؟ لا أحد على التحقيق

على أن المنزل لم يكن للمعجوز والشاب في الحقيقة ، وإنما هو لرجل ملاح يعمل في النيل ويقضى فيه العام كله . ولا يهبط القرية إلا زمن التحاريق ، فإذا جاء ، بات في سفينته ، فقد ألف الرجل النيل ، ونسى منزله على توالي السنين

نمرعة الكامل بقرية « س » وهي قرية صغيرة من قري الصعيد ، فتشطرها شطرين غير متساويين ، فقد جارت على الجانب الأيسر بقدر ما أضفت على الأيمن ، فاتسع هذا واستفاض حتى أصبحت منازلها وبساتينه ومخيلته وأعنايه لا يحددها البصر ولا تحصرها العين ، واستدق ذلك واستطال حتى قامت منازلها الصغيرة على شط الترعة ذليلة منكسرة واجمة ، تشكو إلى الله ظلم الطبيعة بعد أن شكت جور الإنسان الذي خلفها سوداء قدرة تمرح فيها الحشرات من كل لون وجنس

وإذا استقبلت القرية وأنت قادم على جسر الطويل ، بصرت أول ما تبصر بمنزل لمنغير من هذه المنازل بني بالطوب الأسود ، وخط جواره بستان ، ليس فيه سوى نخلتين ؛ مالت إحداها على الترعة ، حتى غرقت فروعها في الماء ، وسمقت الأخرى في الجو ، حتى ناطحت بسفها السماء ، ولا ندر النخلتان نمرأ الآن ، ولا يرجى منها شيء ، في المستقبل ، فقد جف عودها وذهب شبابها . وتقيم في هذا المنزل منذ أكثر من تسعة أعوام أرملة في الخمسين ، وهي امرأة دثة الطبع — على خلاف المعجوز من مثيلاتها — ناحلة الجسم معروفة العظم واهية البناء ، تستريح في بيتها معظم العام ، حتى يهل رمضان ، فإذا هل ، خرجت في المزيم الأول من كل ليلة حاملة على ذراعها سفينة قدع تطوف بها على منازل القرويين ، وهي تنقر نقرأ خفيفاً ، وتغني بأغنية قديمة ، قل من يدرك معناها ومبناها من سكان القرية ؛ على أنهم كانوا يهبون من مضاجعهم عند ما يصفح سمهم إيقاعها وغناؤها ويسطون موائد السحور ، وإن كان الليل لم يتصف بعد !! وهذا العمل الضئيل لا يجاب لها في الغالب رزق شهرين أو ثلاثة ،

تخيفهم عصاه الغليظة وإن كانت لم تصافح إحداهن حتى الآن .
ومن هنا نشأت المداوة بينه وبينهن واشتدت مع الزمن
أما الأطفال فكانوا كلما بصروا به على الجسر ، وهو في
طريقه الى منزله ، تقوده عصاه ، صدره الى الأمام ، وسمعه
مرهف ، ورأسه مستو ، وقامته منتصبه ، وخطواته ثابتة مترنة
جروا وراءه يسبونونه ، وقد يحصبونه بالحصى أو يرمونه بالحجارة ،
وهو صامت باسم لا يلتفت إليهم ولا يكلم أحدا منهم ، حتى
يقرب من بيته ، وهنا يطلع عليهم كلب للجيران أسود ضخم
يربض دائما على الجسر ، فينطلق وراءهم حتى يشردهم في الدروب .
وشد ما غاظ هذا الكلب الأطفال حتى تسممهم يهيمون خوفا
من أن يسممهم الكلب « لولا هذا الكلب .. ابن الكلب ..
لكان الأعمى ... » وإن كانوا يقررون بينهم وبين أنفسهم أنه
قلما كانت تصيب الرجل حصاة واحدة من كل ما يرمونه من
حصى وحجر

ولم يكن لهذه المداوة سبب ظاهر في الحقيقة ، اللهم إلا
الطبع الشرير الذي يزرع بالأطفال الى السوء ، ويحبب لهم أذى
الضعفاء من الناس

تأخر الأعمى مرة في المسجد حتى زحف الليل ، وتكاثف
الظلام واشتد ، فسمع وهو راقد في ركن من أركان المسجد
صوت الدلو في البئر ، فاستوى على قدميه ، ومشى على أطراف
أصابه كاتما أنفاسه ، وصدره يضطرب ، وجسمه كله يهتز ،
حتى جاز صحن المسجد ، وتيامن الى البئر ، وقلبه واجف . وكان
قد خنت صوت الدلو ، ووضع صوت « الجبيذ » فقال لنفسه ،
لا بد أن امرأة تجذب الدلو الآن وهي مشتغلة به فلا تسمع
خطوات قادم ... ووقف برهة ثم صاح بصوت خشن :
« مين ؟ »

فاستدارت المرأة وحملت في الظلام . أواه ... إنه سيد
الأعمى على مدى ذراعين منها ، ودمت الدلو وأذعها الموقت
المرعب عن ابداء حركة ما ، فوفقت فاغرة فاما ، ثم أسعفتها
غريزة الحرب بمدثوان ، فولت هاربة . فسمع وقع أقدامها تجرى
وراءها ، وسمعه إلى خطاها ، وجرت حتى حاوزت المسجد .
وبودها لو تصيح بأعلى صوتها ، ولكن من أين لها القوة على
ذلك ؟ وكيف بطاوعها الصوت ؟ وعثرت قدما بمجرى الطريق
فكبت على وجهها مذعورة ، وأنت عند ذلك أنه قوية ، فجرى

وكان المسجد الذي يؤذن فيه الأعمى في طرف القرية الشمالي ،
ولكي يلفه لا بد له أن يجتاز القرعة وعليها جسر ضيق ، يجوزه
المبصر وهو واجف حذر ، فكيف بالأعمى ، ثم يدور بعد ذلك
في دروب وينطف في منمطفات ، ويجتاز بساتين من النخيل
يكثُر فيها الحسك والشوك ، وعلى الرغم من هذا كله ، فإن الرجل
كان يبلغ المسجد وكأنه المبصر الحديد البصر ، فلا يضل ولا
ينبأ في سيره ؛ ولا يتمد على حائط ، ولا يستند الى جدار ،
وشد ما تعجب لذلك وتدهش ؛ على أنك متى سمعت القرويين وهم
يقولون إن الرجل يبصر بقلبه ذهب عنك العجب كله

وإذا طلع الفجر على القرية ، وهي غارقة في سبات عميق ،
وكل شيء فيها ساكن هاجع ، فلا نامة ولا حركة ، اللهم إلا
سامقات النخيل وهي تترج مع النسيم الوافي ، وسيقان الزرع
وهي تتأيل مع الريح الرضاء ، طلع الأعمى الى سطح المسجد ،
وانطلق يؤذن في صوت حلو التبرات عذب الرنين ، ينفذ الى
كل قلب ، ويهفو الى كل أذن ، ومن الذي يسمعه وهو يقول :
« حى على الصلاة ! » فيتأخر بعد ذلك عن الصلاة ؟ لقد كان صوته
لينا شجيا يرن في سكون الليل جميل اللحن عذب الرنين ، فيهب
له القرويون من مضاجعهم ، ويخفون الى المسجد خاشعين صامتين
وكان الرجل محبوبا من أهل القرية جميعا إلا النساء
والأطفال . أما النساء فيكرهنه لأنه يزرجهن عن بئر المسجد ،
ويغتمهن من ملء الجرار منها بقسوة وغلظة ، حتى ينقلب صوته
الحنون عند محادثتهن الى صوت أجش خشن مرعب أحيانا ؛
والقرية لا تستغنى عن ماء البئر خصوصا زمن الفيضان عند
ما يصبح الماء عكرا نصفه طين . وكم تنقلته سمرارا ، وهو الأعمى
وهن النجل الميون ؛ على أن سمعه المرهف دائما كان ينظهن أشد
القيظ ! فإذا أدلت إحداهن الدلو في البئر وحركت « الجبيذ »
(البكرة) ، وهو خشبي يحتاج للسقى بالزيت ليحبس صوته في
جوفه ، صر هذا ، فيمد الأعمى قامته ويقول بصوت جاف :
« مين ؟ »

فيتركن الدلو والجرار ويرحن يصلصلن بالحلى ، ويطربن على
وجوههن هاربات ، وقد تقع إحداهن على وجهها ، فتخوض
فيها الأخرى من فرط الرعب ، ويقمن وجلات مذعورات
ضاحكات أبعثا ، على أن هذا لم يشهن من البئر اليأس كله ،
فهن يعلمن أنه يتروح بمد المشاء ، فإذا بصرن به خارحا من
المسجد انطلقن الى البئر وهن راجفات أيضا . فشد ما كانت

إلا بعد أن ينام الناس ، وتنقطع الرجل . . فهي فتاة في روتق سبأها رائحة الحسن غضة المود وزوجها يخشى عليها العين ، ولا يحب لها ملاقة شبان القرية الذين يقفون على رأس الطريق في ساعات معينة من النهار ! وكانت تقابل سيد الأعمى في غالب الأوقات التي ترد فيها البئر ، وكثيراً ما أترع لها الجرة ، وأعطها على حملها ، أو ملأ لها الحوض الصغير الذي على يمين البئر لتفعل وجهها ورجليها قبل ذهابها الى بيتها ، وكانت تطوى كميها الى مرقعها ، ونحسر شالها عن شعرها ، وترفع ثوبها الى ساقها وهي منحنية على الحوض تفعل ذلك . كانت تفعل ذلك ، دون خجل أو حياء لأن سيداً أعمى

واستراح سيد على مرور الأيام لمحضرها حتى أصبح يشمر في الأيام التي تتخلف فيها بالاتباض والوحشة . كان يحس ، من أعماق نفسه ، أن شيئاً يتقصه ، شيئاً يستريح معه ، وينشرح له صدره ، وتتثنى حواسه ، وتهدأ نائرة أعصابه

وكانت جميلة تدفعها غريزتها أول الأمر إلى الخوف منه واتقاء شره كرجل ، بصرف النظر عن كونه أعمى ، ولكنها ما لبثت - بعد الانفراد معه مرة ومرات - أن استراحت واطمأنت ووثقت من عفته وخلقه ، حتى كانت تخرج معه إلى حد المداعبة ، كأن تحفي عكازته ، أو تخلع الدلو ، أو تقطع الجبل ، أو ترشه بالاء ، وكان يضحك لهذا حتى يرقص قلبه ، ويلوح لها بمصاه مهدداً على أن هذا التآلف الذي أصبح بين سيد وجميلة ، لم يشجع

غيرها من النساء على القرب من البئر ، لأنهن كن لا يملن بتغير حاله ، وإن علمن لا يصدقن ، ولم يكن هو يزجرهن عن البئر ، ويمتنعن من ملء الجرار منها ، لأنه كان يخاف على الماء فقط ، بل لأن شيئاً خفياً في أعماق نفسه ، كان يدفعه إلى التفور منهن وإبعادهن عن جوه . . . دافع باطنى مجيب كان يخرج عن هدونه وسكونه ، عندما يسمعن يتحدثن على الماء أعذب حديث وأرقه ، كان يرجف له ويضطرب ، وهو الرجل وهن النساء . . . شعور باطنى غريب كان يحمله على فعل ذلك ولم يستطع تحليله ولا تعليله ، وهو الجاهل الذي لم يذهب إلى المدرسة ولم يدرس علم النفس . لقد قضى الرجل حياته بعيداً عن جو المرأة فأخرجها عن دائرة تفكيره ، بعد أن خرجت عن دائرة وجوده ، ولم يمد يفكر فيها مطلقاً . . . لم يمد يفكر فيها ، ولا يحن إلى لقيائها ، ولا يستريح لرقعتها

على الصوت وأهوى بيده العمياء ولمس كفتها ، وكان قد بلغ منه الجهد فوقف يلهث ويده ممسكة بكفتها ، ثم أزل يده حتى قبض بمنف على رسنها ، وقامت المرأة متراجمة ، ترد لو تفلت منه بكل ما تستطيع من قوة ، ولكنه ضغط على يدها بشدة ، ونحس بيده الأخرى وجهها وقال في صوت مترن :

« جميلة . . . ؟ »

« »

ووقفت المرأة صامته تهتز وترجف

« لم لا تناديني لأملأ لك الجرة ؟ »

وقدرق صوته جداً ، فدهشت من تطور حاله وصممت « لماذا ؟ »

فشجما صوته اللين وأجابت

« إنك لا تسمح لأحد بالدنو من البئر . . . فكيف أناديك ؟ »

« ليس لواحدة أو اثنتين . . . وإنما عندما يجئن بالمشرات

فتقطعن الجبل ، وتمزقن الدلو ، وتهسمن خشب الجيبد . . . في البلد

أكثر من أربع آبار قريبة ، فلماذا تجئن الى هنا دائماً . . . ؟ »

« لأن هذه أعذبها ماء . . . »

« هذا الماء العذب كثيراً ما يترجح . . . »

« النيل في فيضانه والماء كثير . . . »

« أجل . . . أ . . . أ . . . ولكن . . . أملأت الجرة ؟ »

« نصفها . . . »

« سأكلها لك »

واقبل إلى البئر ، فشت وراه مطمئنة ، وأدلى الدلو وهو

يحس بمص الاضطراب ، فأخذ يدبر الجيبد بسرعة ليملاها الجرة

ويصرفها عنه ، ويمدها عن وحدته وسكونه

وقال وهو يفرغ الدلو بصوت خافت لين الخارج :

« إذا جئت مرة أخرى . . . ناديني لأملأها لك »

« كتر خيرك »

وساعدها على حمل الجرة ، وانطلقت بها الى بيتها ، ووقف

بنصت إلى هزيم الريح القوية في الحقل البعيد

وأخذت جميلة بعد هذه الليلة تتردد على البئر دون خوف أو

وجل ، كانت تجيء في كل يوم مرة ، عند مطلع الفجر أو بعد

أذان العشاء ، لأن زوجها لا يسمح لها بالسبر في طريق القرية